مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

السياسة الخارجية الإيرانية وفق النظرية البنائية

أحمد بن نايف السديري
مركز الخليج للأبحاث

أغسطس ٢٠٢٦

@Gulf_Research Gulfresearchcenter gulfresearchcenter gulfresearchcenter

25 Gulf Research Center Knowledge for All

الآراء الواردة في هذا المقال تعبر عن رأي الكاتب وحده، ولا تعكس بالضرورة سياسة أو توجه مركز الخليج للأبحاث

مقدمة

تتسم السياسة الخارجية الإيرانية بدرجة من التعقيد تجعل تفسيرها بالعوامل المادية، مثل القوة والأمن والمصالح، غير كافٍ وحده. إذ يتطلب فهمها النظر أيضًا في أثر الهوية والأفكار والتصورات التاريخية التي تشكل رؤية النظام الإيراني لذاته ولمحيطه. وفي هذا السياق، تقدم النظرية البنائية إطارًا مناسبًا لتحليل السياسة الخارجية الإيرانية، لأنها ترى أن مصالح الدول وسلوكها يتأثران بهويتها وبالمعاني التي تضفيها على علاقاتها مع الآخرين. وتسعى هذه الورقة إلى توضيح أثر الهوية الثورية والدينية والقومية، والذاكرة التاريخية، في تشكيل المشروع التغييري للنظام الإيراني الحالي ومواقفه الإقليمية والدولية.

النظرية البنائية وتفسير سلوك الدول

تختلف النظرية البنائية عن بعض النظريات التقليدية، مثل الواقعية، في أنها لا تفسر سلوك الدول بالقوة والمصالح المادية وحدها، بل تهتم كذلك بالأفكار والمعتقدات والهويات والتفاعلات الاجتماعية التي تسهم في تشكيل مصالحها وتصوراتها عن العالم. ووفقًا لهذا التصور، لا تكون مصالح الدول ثابتة أو محددة مسبقًا، بل تتكون من خلال البناء الاجتماعي الناتج عن تفاعل الدول والمعاني التي تضفيها على هذا التفاعل.

ولتوضيح ذلك، أشار ألكسندر وندت، أحد أبرز منظّري النظرية البنائية، إلى أن الولايات المتحدة لا تنظر إلى خمسمائة قنبلة نووية بريطانية بوصفها تهديدًا، في حين تعد خمس قنابل نووية تمتلكها كوريا الشمالية مصدرًا للخطر [1]. ويبين هذا المثال أن تقدير التهديد لا يعتمد على حجم القوة العسكرية وحده، بل يتأثر بطبيعة العلاقة بين الدول والتصورات المتبادلة بينها. فالأسلحة النووية عنصر مادي، إلا أن معناها ومستوى خطورتها يتحددان وفق البنية الفكرية أو المعنوية (Ideational Structure)، أي منظومة الأفكار والمعتقدات التي تشكل نظرة الدول إلى بعضها.

وينطبق ذلك أيضًا على فهم البنائية للبنية الفوضوية للنظام الدولي (Anarchic Structure)، أي غياب سلطة مركزية تعلو على الدول. وفي هذا السياق، قال وندت: «الفوضى هي ما تصنعه الدول» [2]، بمعنى أن غياب السلطة المركزية لا يفرض نمطًا ثابتًا من العلاقات، بل يتحدد أثره وفق طبيعة التفاعل بين الدول. وتتأثر طريقة الدولة في فهم هذه البيئة بهويتها، التي تحدد تصورها لذاتها ومصالحها وكيفية تعاملها مع الآخرين. ولذلك لا تفسر البنائية سلوك الدول بالقدرات المادية وحدها، بل تركز أيضًا على أثر الهوية والأفكار في توجيه سياستها الخارجية.

> **أشار ألكسندر وندت أحد أبرز منظّري النظرية البنائية، إلى أن الولايات المتحدة لا تنظر إلى خمسمائة قنبلة نووية بريطانية بوصفها تهديدًا في حين تعد خمس قنابل نووية تمتلكها كوريا الشمالية مصدرًا للخطر**

الهوية الإيرانية بين البعدين القومي والديني

تتكون الهوية الإيرانية من عناصر تاريخية وقومية ودينية تداخلت عبر مراحل مختلفة، إلا أن مكانة كل عنصر منها اختلفت باختلاف النظام الحاكم والأساس الذي استند إليه في بناء شرعيته. فقد ركز النظام البهلوي على القومية الفارسية والتاريخ السابق للإسلام، في حين وضع النظام الإيراني الحالي الهوية الإسلامية الشيعية والثورية في مقدمة خطابه السياسي. ومع ذلك، لم يتمكن أي من النظامين من إقصاء البعد الآخر بصورة كاملة.

استند النظام البهلوي في جانب من شرعيته إلى القومية الإيرانية، القائمة على إبراز التاريخ الفارسي والهوية الوطنية السابقة للإسلام، وأسهم توتر علاقته بالمؤسسة الدينية في تعزيز هذا التوجه. أما النظام الإيراني الحالي، فاعتمد على الهوية الإسلامية الشيعية، وسعى إلى الحد من بعض مظاهر الهوية القومية عندما رأى فيها تعارضًا مع توجهه الديني والثوري. ومع ذلك، ظل البعد الفارسي حاضرًا في خطاب الدولة، كما يظهر في تمسك النظامين بتسمية «الخليج الفارسي». ومن ثم، لم يكن الاختلاف بينهما في وجود الهويتين القومية والدينية، بل في ترتيب أولوياتهما وطريقة توظيفهما في ترسيخ شرعية الحكم.

الذاكرة التاريخية وأثرها في تصور إيران لذاتها

تؤدي الذاكرة التاريخية دورًا مهمًا في تشكيل تصور إيران لذاتها ومكانتها. فالإيرانيون ينظرون إلى بلادهم بوصفها صاحبة حضارة وتاريخ قديمين، ويرون أن هذا الإرث يؤهلها لأن تكون دولة قوية ومؤثرة. وقد تأثر هذا التصور بأحداث اعتُبرت مهينة لإيران، من بينها معاهدتا غولستان عام ١٨١٣ وتركمانشاي عام ١٨٢٨ [٣]، اللتان وُقّعتا مع الإمبراطورية الروسية بعد هزيمة إيران، وتضمنتا تنازلها عن أراضٍ لصالح روسيا.

وقد بقيت هاتان المعاهدتان حاضرتين في الذاكرة السياسية الإيرانية بوصفهما مثالًا على الاتفاقات التي أضعفت سيادة البلاد. ولهذا تنظر بعض التيارات الإيرانية بحذر إلى الاتفاقات التي تُبرم في ظل اختلال موازين القوى، خشية أن تؤدي إلى تنازلات تمس مكانة إيران أو سيادتها. ويسهم ذلك في تفسير جانب من معارضة بعض التيارات للتفاوض مع الولايات المتحدة في ظروف تعدها غير متكافئة.

وتعززت الحساسية تجاه التدخل الخارجي بفعل أحداث عام ١٩٥٣، عندما أسهمت الولايات المتحدة وبريطانيا في الإطاحة برئيس الوزراء محمد مصدق وإعادة الشاه إلى الحكم. وينظر النظام الإيراني إلى هذا الحدث بوصفه دليلًا على تبعية النظام البهلوي للقوى الغربية، وأحد الأسباب التي رسخت الشك في نيات الولايات المتحدة. ولذلك أصبح رفض التدخل الأجنبي والدفاع عن الاستقلال السياسي جزءًا أساسيًا من هويته الثورية.

> اعتمد النظام الإيراني الحالي على الهوية الإسلامية الشيعية وسعى إلى الحد من بعض مظاهر الهوية القومية عندما رأى فيها تعارضًا مع توجهه الديني والثوري

الهوية الثورية والمشروع التغييري

تتسم هوية النظام الإيراني بطابع ثوري انعكس على تصوره لدوره في النظامين الإقليمي والدولي. فهو لا ينظر إلى إيران بوصفها دولة تسعى فقط إلى الحفاظ على الوضع القائم، بل باعتبارها تحمل مشروعًا تغييريًا يهدف إلى إعادة تشكيل موازين القوى والقواعد السائدة بما ينسجم مع مبادئ الثورة ومصالح النظام. ويختلف هذا التوجه عن سياسة النظام البهلوي، الذي كان أقرب إلى الاندماج في النظام الدولي القائم.

تتحرك إيران باستقلال أكبر في ظل غياب حليف دولي رئيسي تعتمد عليه في ضمان أمنها. ويستند مشروعها التغييري إلى الفكر الثوري الذي قامت عليه شرعية النظام، ولذلك قد يؤدي التخلي عنه إلى إضعاف هويته ومبررات استمراره. وفي هذا الإطار، تُستحضر تجربة الاتحاد السوفيتي بوصفها مثالًا على مخاطر التراجع عن المبادئ الثورية، بينما تقدم الصين نموذجًا لدولة عدلت سياساتها الخارجية والاقتصادية مع الحفاظ على نظامها السياسي. ويعكس تصريح وزير الخارجية الإيراني السابق محمد جواد ظريف جانبًا من هذا التصور، حين قال إن الضغوط المفروضة على إيران تعود إلى أنها «اختارت أن تعيش بطريقة مختلفة" [٤].

ويُظهر استمرار النظام الإيراني رغم مقتل عدد من كبار قادته خلال الحرب، وفي مقدمتهم المرشد الأعلى علي خامنئي، أهمية الهوية في تفسير تماسكه واستمراره. فمن منظور النظرية البنائية، تُعد المقاومة جزءًا أساسيًا من هوية النظام، إلى جانب مركزية مفهوم الشهادة في فكر ولاية الفقيه خاصةً والفكر الشيعي عمومًا. ومن ثم، كان الاعتقاد الأمريكي بأن اغتيال رأس النظام سيؤدي إلى سقوطه، على غرار ما حدث في فنزويلا، اعتقادًا غير دقيق؛ لأن هوية النظام لا تقوم على شخص خامنئي وحده، كما أن مقتله لا يؤدي بالضرورة إلى انهيار البنية التي تتشكل من خلالها مصالح إيران، بل قد يدفع النظام إلى مزيد من التشدد وتعزيز دور الحرس الثوري.

يمكن تفسير الصراع حول السيطرة على مضيق هرمز من خلال النظرية البنائية؛ إذ تسعى إيران إلى تغيير الوضع القائم فيه وفرض سيطرتها عليه، بما يؤدي إلى تغيير البنية الفكرية لصالحها وإنهاء البنية السابقة التي كانت قائمة على حرية الملاحة وإتاحة المضيق للجميع. وترى إيران أن المضيق ينبغي أن يكون تحت سلطتها، ردعًا لأي صراع مستقبلي مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وتعويضًا عن الخسائر التي لحقت بها خلال الحرب. ولا يعتمد نجاح هذا المسعى على القدرات العسكرية وحدها، بل على اعتراف الفاعلين من الدول وغير الدول بالسيطرة الإيرانية، من خلال دفع الرسوم والالتزام بالأنظمة التي تفرضها، وهو ما يرسخ بناءً فكريًا جديدًا يعترف بالسلطة الإيرانية على المضيق.

> **تُستحضر تجربة الاتحاد السوفيتي بوصفها مثالًا على مخاطر التراجع عن المبادئ الثورية بينما تقدم الصين نموذجًا لدولة عدلت سياساتها الخارجية والاقتصادية مع الحفاظ على نظامها السياسي**

الوحدة الاستراتيجية والعلاقة بالفاعلين من غير الدول

تواجه إيران صعوبة في الاندماج الكامل ضمن تحالف إقليمي ثابت، بسبب اختلاف هويتها القومية والمذهبية عن معظم الدول المحيطة بها. ففي حين يغلب على هويتها الطابع الفارسي والشيعي، يغلب على محيطها الإقليمي الطابع العربي أو التركي والسني. وفي هذا السياق، وصف الباحث محيي الدين مصباحي وضع إيران بمفهوم «الوحدة الاستراتيجية» [٥]، في إشارة إلى شعورها بأنها تفتقر إلى حلفاء يمكن الاعتماد عليهم بصورة كاملة في ضمان أمنها.

وتسعى إيران إلى تعويض هذه الوحدة من خلال بناء علاقات مع فاعلين من غير الدول يرتبطون بها فكريًا أو مذهبيًا. ولذلك دعمت جماعات محلية ترى فيها شركاء قادرين على خدمة مصالحها الإقليمية، كما يظهر في علاقتها بحزب اللّه في لبنان. ولا تنظر إيران إلى هذه الجماعات بوصفها أدوات نفوذ فحسب، بل تعدها كذلك خطوط دفاع متقدمة وأوراقًا استراتيجية يصعب التخلي عنها.

وقد عززت الحرب الإيرانية الأمريكية الإسرائيلية أهمية هذه الشبكة في التصور الأمني الإيراني، وأظهرت الدور الذي يمكن أن يؤديه حلفاء إيران في مواجهة خصومها. كما قد تسهم تداعيات الحرب في تعزيز موقف التيارات المطالبة بامتلاك سلاح نووي، باعتباره وسيلة لردع الهجمات المستقبلية وحماية النظام من محاولات إسقاطه.

تفاوت دعم ما يُعرف بـ«محور المقاومة» لإيران أثناء الحرب من جماعة إلى أخرى. فقد قدمت الميليشيات العراقية وحزب اللّه أكبر قدر من الدعم، ثم جاء الحوثيون، الذين لم يقدموا دعمًا ملموسًا إلا بعد توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار، في حين لم تقدم حماس أي دعم مادي لإيران. ويعود هذا التفاوت إلى طبيعة الروابط الهوياتية بين إيران وهذه الجماعات؛ فالميليشيات العراقية وحزب اللّه ينتمون إلى المذهب الشيعي الاثني عشري، ويرتبطون بإيران ثقافيًا وفكريًا وسياسيًا. أما الحوثيون، فهم شيعة غير اثني عشريين، وقد ترددوا في تقديم الدعم إلى أن تبين لهم أن إيران ستحقق مكاسب من الحرب، وأن التقرب منها قد يضمن لهم نصيبًا من تلك المكاسب.

أما حماس، وهي حركة سنية، فيصعب تحليل موقفها من الحرب في ظل إنهاكها بعد سنوات من القتال وتوقيعها اتفاقية لوقف إطلاق النار، وهو ما حدّ من قدرتها على تقديم دعم مادي لإيران حتى مع افتراض رغبتها في ذلك. كما كان موقفها الرسمي محل خلاف بين قياداتها؛ إذ تقوم علاقتها بإيران أساسًا على صراعهما المشترك مع إسرائيل، في ظل ضعف الارتباط الهوياتي بينهما، ولذلك قد تضعف هذه العلاقة في حال غياب هذا الصراع [٦]. ولا يعني ذلك اختزال علاقات هذه الجماعات بإيران في العامل الطائفي وحده، إلا أنه يظل عاملًا أساسيًا في تحديد طبيعة هذه العلاقات، وإحدى الأدوات التي تستخدمها إيران لمعالجة وحدتها الاستراتيجية. ومن وجهة نظر إيران، أثبت الدعم الذي تلقته أثناء الحرب سلامة سياستها الممتدة

> **تؤدي الذاكرة التاريخية دورًا مهمًا في تشكيل تصور إيران لذاتها ومكانتها. فالإيرانيون ينظرون إلى بلادهم بوصفها صاحبة حضارة وتاريخ قديمين، ويرون أن هذا الإرث يؤهلها لأن تكون دولة قوية ومؤثرة**

لعقود في بناء هوية ثورية مشتركة في المنطقة؛ فالجماعات التي دعمتها إيران هي نفسها التي قاتلت إلى جانبها.

خاتمة

تظهر دراسة السياسة الخارجية الإيرانية من منظور النظرية البنائية أن سلوك النظام الإيراني لا يتحدد بالقدرات المادية والمصالح الأمنية وحدها، بل يتأثر أيضًا بهويته وتصوراته التاريخية. فقد أسهم تداخل الهوية الإسلامية الشيعية والثورية مع العناصر القومية والذاكرة المرتبطة بالتدخل الأجنبي في تحديد مصالح إيران، وتوجيه مواقفها من القوى الإقليمية والدولية، وتعزيز تمسك النظام بمشروعه التغييري وعلاقاته مع الفاعلين من غير الدول.

وعليه، فإن تغير السياسة الخارجية الإيرانية على المدى الطويل لا يعتمد فقط على الحوافز أو الضغوط، بل يرتبط أيضًا بتغير الأفكار والتصورات التي تحدد فهم النظام لمصالحه وموقعه الإقليمي والدولي. ومع ذلك، لا تقدم النظرية البنائية تفسيرًا شاملًا للسلوك الإيراني، وإنما توضح أبعاده الفكرية والهوياتية إلى جانب التفسيرات الأمنية والمادية.

المراجع

1. Wendt, Alexander, Anarchy is what states make of it: the social construction of power politics, International Organization, Vol. ٤٦, No. ٢, ١٩٩٢, P. ٣٩١–٤٢٥
2. Wendt, A. (١٩٩٥) 'Constructing International Politics', International Security, ٢٠(١), pp. ٧١–٨١.
3. Gheissari, Ali, Unequal Treaties and the Question of Sovereignty in Qajar and early Pahlavi Iran Institute for Middle Eastern and Islamic Studies, Durham University, Durham Middle East Papers, no. ١٠٦, ٢٠٢٣.
٤. Iran's Zarif Draws Ire for Saying Iranians 'Chose' to Live with Pressures." VOA News," Voice of America, ٢٧ Aug. ٢٠١٨, www.voanews.com/middle–east/voa–news–iran/irans–zarif–draws–ire–saying–iranians–chose–live–pressures.
5. Mesbahi, Mohiaddin. "Free and Confined: Iran and the International System." Iranian Review of Foreign Affairs, Vol. ٢, No. ٥ (٢٠١١), pp. ٩–٣٤.
6. AbuMousa, Jaser. "Hamas at a Crossroads in the Post–Ali Khamenei Era." Middle East Institute, March ٢٣, ٢٠٢٦. https://mei.edu/publication/hamas–at–a–crossroads–in–post–ali–khamenei–era/.

> سلوك النظام الإيراني لا يتحدد بالقدرات المادية والمصالح الأمنية وحدها بل يتأثر أيضًا بهويته وتصوراته التاريخية

Gulf Research Center
Knowledge for All

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

4th Floor
Avenue de
Cortenbergh 89
1000 Brussels
Belgium
grcb@grc.net
+32 2 251 41 64